القسم الأول

أبحاث ودراسات

الفصل الأول

النزعة الثيوصوفية عند أحمد ذكي أبوشادي

أبو شادي ماسونيًا

لقد عرف المثقفون أحمد زكي أبو شادي (1892م - 1955م) الطبيب واللغوي والشاعر، غير أنّ الكثيرين لم يقفوا على كتاباته النثريّة التي تكشف عن الوجه الآخر لهذا الكاتب الذي انتقل به إلى ميدان الفلسفة والنقد وأتون المثاقفة التي ساجل على سفوده الأزهريّين المتعصّبين والعلمانيّين الملحدين، وأعلن انتصاره للعلم والتصوف العملي والماسونيّة، وسوف نحاول خلال مقالات متتابعة الكشف عن آرائه وما خلفته من أثر في حياتنا الثقافيّة والفلسفيّة.

فقد ذهب أبو شادي في كتابه «البناية الحرّة، خطرات عن الماسونيّة» - الذي صدر عام 1926م بمناسبة تدشين المحفل الماسوني «البدر المنير»؛ الذي ترأسه في بورسعيد - إلى أنّ الماسونيّة تقام على أسس من العرفان والعلم والتسامح والإخاء بين البشر، والتعاون بينهم، والاعتراف بوجود الله؛ مهندس الكون وصاحب ميزان العدالة والمساواة بين البشر، وهي تسعى إلى تحقيق أكبر قدر من السعادة الإنسانيّة على هذه الأرض؛ وذلك تحت

مظلة فسيحة من القيم الراقية والمحبة والوفاء والفضيلة في كل ما يكلف به الإنسان أو يختاره بمحض إرادته الحرة من أفعال.

كما نزع إلى أنّ الماسونيّة هي التي تبعث في الأنفس فضيلة القناعة؛ ولا سيما بين الأغنياء وأصحاب الأعمال؛ وعليه نجده يصرّح بأن الأمم الفاضلة والراقية والساعية إلى التقدّم والرخاء هي التي تجزل العطاء لعمالها؛ فتحسن أجورهم ومعاشهم وسكنتهم، الأمر الذي يدفعهم إلى الإخلاص والتفاني فيما يقومون به من أعمال في شتى المرافق، فعين الرضا هي التي تدفع اليد العاملة إلى الإبداع واللمسة الجمالية، ذلك فضلاً عن التقنية العالية والجودة في الإنتاج؛ فيقول: «ليس من شك في أنّ وطننا العزيز من أحوج المواطن لبث الماسونيّة ونشر روحها والاستنارة بها.... فمن يتحدث بعد ذلك عن أنّ الماسونيّة شيء كمالي في مصر - بل لا موجب لها - إنما يخبط خبط عشواء، ولا يعرف من أحوال أمته شيئًا؛ فإنّ من أسس التعاليم الماسونيّة الحريّة والإخاء والمساواة - بأكمل معانيها، ونحن في حاجة لنشر وتطبيق كل ذلك في مصر، ومن الحريّة أن نحصل على استقلالنا، ويجب أن يبدأ الاستقلال من القرية».[1]

ويحذر أبو شادي من مظاهر الظلم الاجتماعي وتجاهل المهمشين و إهمال أحوال الفقراء؛ ولاسيما الفلاحين، فمن أخطر المشاعر خطرًا على الأمة هو ذلك اليأس إذا ما تملك من أنفس المعوزين فيدفعهم ذلك إلى الانتحار هربًا من إحساسهم بالاغتراب والغربة في ذلك العالم الذي لا يرقق بهم أو يقودهم إلى ثورة غير مأمونة العواقب؛ وذلك لأنها تحمل بين طياتها كل

(1) أحمد زكي أبوشادي: البناية الحرة، خطرات عن الماسونية، المطبعة السلفية، مصر، 1926، صـ15.

شرار الغضب والحقد والظلم والثأر من الذين أفسدوا ميزان العدالة وسرقوا مكيال المساواة، ويقول: «أن الاستقلال الثابت المتين هو الذي يبدأ بالقرية وبالفلاح؛ ليجعل منه رجلاً عاملاً نشيطًا قويًّا صحيح الجسم مثقف العقل يعيش في رغد من العيش، لا ترهقه الديون، ولا تستغله المصارف والبنوك لمصلحتها.

لهذا كان واجبًا على رؤساء هذا البلد ومفكريه أن يعنوا عناية خاصّة بالفلاح، وأن يبذلوا جهودهم في ترقيته ورفع مستواه من الوجهة الخلقية والعلميّة والماليّة والصحيّة والصناعيّة، فكل خطوة تخطى في هذا السبيل إنما تقرب الأمة يقينًا من مطلبها المقدس وغايتها القصوى».[1]

ويضيف أبو شادي إنّ السلام الاجتماعي الذي نسعى إلى تحقيقه في مصر ينبغي أن يبدأ بإصلاح حال العمال والفلاحين، ليس ذلك لأنهم السواد الأعظم من ثروتنا البشريّة؛ بل لأنهم القوة الحقيقية الكامنة التي بمقدورها إسقاط النظم وحمايتها وتنفيذ المشروعات والمخططات أو إفسادها، وعليه: فالحكومات الواعية هي التي تعمل من أجل ارتقاء هذه الطبقة وإنقاذها من مجاهل التهميش وقسوة الغلاء، وأغلال الفقر والجهل والمرض.

فلنعلم أنّ غاية الماسونيّة هي السلام بأوسع معانيه؛ وذلك للقضاء على الصراع الديني والطائفي والمذهبي، والعزوف عن العراك السياسي والتساجل الحزبي، فإن السلام الذي تنشده الماسونيّة يكمن في ذلك الثالوث الذي لا تختلف حوله الأديان، ولا رجالات الساسّة، ولا المصلحين الاجتماعيّين؛ فالعدالة والحريّة والمساواة وما يتبع هذا الثالوث من فضائل وقيم تتمثل في

(1) المرجع نفسه، صـ 18.

التسـامح والحب والتعاون؛ فكل ذلك من شأنه أن يثبت أركان مظلة السلام العالمي المنشود.

ومن ثم يجب على المحافل الماسـونيّة المصرية التنسـيق فيما بينها لتحقيق ذلك الهدف - أعني السلام الاجتماعي والسياسي والطائفي.

ولا ينبغـي علينا الإصغاء لأبواق المشـككين والطاعنين في نوايانا بحجة أن بعـض تعاليمنـا لا تخلو من الأسرار، فهذا ليس عيبًا ولا يشـكل خطرًا ما دامت المقاصد معلنة والغايات معروفة والأهداف تتحقق على أرض الواقع؛ ويقول: «ليس في الماسـونيّة كما تعلمون من سرّ سـوى المحافظة على رابطة العشـيرة ومتانتها و إبعاد الأجانب الأنانيّين الجهـلاء الذين حكمت الوراثة السـيئة عليهم، وهيهات تصلحهم التعاليم، فالغرض من أسرار الماسونيّة هو إبعاد الطالح عن الصالح، وصيانة العشرة طاهرة نقية قويّة سـليمة، ومراقبة الترقيـة في درجاتها؛ حتـى لا يتغذى عضو مـن أعضائها بأكثر مما يسـتطيع هضمه من تعاليمها وفلسـفتها، وحتى لا يحرم عضوه العامل - بحكم الحسـد والتنافـس الممقـوت المحرم - مـن الأجر الذي يسـتحقه؛ فإنما قيـم الرجال بالمواهب والأعمال؛ لا بالأعمار والأموال».

وحري بنا أن نشـير إلى أنّ ذلك التشـابه بين لغة الماسونيّين وما تحمله من نرجسيّة وشيفونيّة وكتابات الإخوان المسلمين المبكرة التي خطها حسن البنا ليس وليد المصادفة؛ بل وحدة المنبت الذي جمع بين المحافل الماسونيّة وجماعة الإخوان السريّة، فكلتاهما - أعني المحافل والجماعة - تخضع لنظام واحد في بنيتها الهرميّة وتشكيلاتها وأفكارها المعلنة وشعاراتها التي تستميل بها طبقة العمال والفلاحين وأواسط المثقفين.

ونعود ثانية لحديث أبي شادي عن فضائل الماسونيّة ورسالتها؛ فنألفه يؤكد على أنّ قداسة العلاقة الحميمة التي تربط بين الماسونيّين لا تقل دفئًا وحرارة عن تلك الرابطة الدينيّة والروحيّة الراقية التي تجمع شتات المتصوّفة والرهبان على حبّ الإله المهندس الأعظم.

ولا تخلو تعاليمها مما ورد من مبادئ شرعيّة على ألسنة الأنبياء وأقوال القدّيسين ونصائح الأبرار ومقاصد المصلحين، الأمر الذي يخرس ألسنة ناقضيها وحسادها، أولئك الذين عابوا عليها انتصارها للعقل والوعي والاستنارة، وغاب عنهم أنه لا سبيل لتحصيل المعارف على اختلافها وتنوعها إلا به، فبالعقل ندرك أنّ للكون منظمًا ومهندسًا ومبدعًا، وبه أيضًا ندرك قيمة العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان وصالح المجتمع وسبل الارتقاء بالأذواق والأخلاق وتخليص الأنفس الشريرة من جهالات الطمع ووحشية العنف؛ ويقول: «لم تر الماسونيّة بدًا من الاهتمام بشئون الدنيا؛ تاركة للدين الاهتمام بشئون الآخرة؛ فخدمت بذلك نفسها كما خدمت الدّين أيضًا، وكما خدمت الإنسانيّة جمعاء».[1]

ولا غرو في أنّ الماسونيّين بعامة - وأحمد زكي أبو شادي على وجه الخصوص - كانوا يرون أنّ وظيفة الدين وظيفة روحيّة خاصة تختلف وتتلون تبعًا لثقافة الأفراد والجماعات، وأنّ مجالها يجب أن ينحصر في الحديث عن شئون الآخرة، أو خبر النعيم والجحيم الذي ينتظر الأخيار والأشرار، أما شئون الدنيا فهو علمانيّ إنسانيّ لا علاقة له بالصراعات الطائفية العنيفة، ومن ثم: باتت الماسونيّة أولى به؛ وذلك لأنها تحمل بين طياتها أفضل ما في الأديان من

(1) المرجع نفسه، صـ 39.

خلـق، وأقوى ما في العقل من علم ووعي واسـتنارة؛ ذلـك فضلاً عن قدرتها على تحقيق خطابها الخالد؛ ألا وهو العدالة ضد كل أشـكال الظلم، والحرية ضد كل سـلطات الاستبداد، والمساواة ضدّ كل ضروب العنصريّة والطبقيّة والجنسيّة.

ويخطئ مـن يعتقد أنّ دعوة الماسـونيّة للحرية تنشـد الفوضى وسـقوط القوانين وهـدم الأنظمة، بل على العكس تمامًا؛ فالماسـونيّة مـع البناء وليس الهدم، وأقـرب إلى الثورات الواعية منها إلى حـركات التمرّد والعنف؛ وهي الصـوت الأمـين الذي ينطـق بأهداف الشـعوب واليـد الفاعلـة التي تحقق أحلامها ومراميها.

ويكـذب من يظنّ أنّ الماسـونيّة في دعوتها للمسـاواة تهمـل الفروق بين المبدع والمقلد، والرجعي والمجدد، والجاهل القانع بعيشـه والعامل الطموح الراغب في الوصول إلى الكمال، كلاّ، فمساواة الماسونيّين ليست بالبلاهة إلى هـذه الدرجة، فليس من العدل أن يكافئ الكسـول على جموده، أو يسـاوى بالعامل والصانع والفلاح الذي يجاهد من أجل تحسين وضعه وصون كرامته، فالعدالة في ذلك التوازن الذي لا يسـمح للأغنيـاء أن يضاعفوا ثرواتهم على حساب المستثمرين الحقيقيّين لهذه الثروات؛ ألا وهي سواعد العمال الذين لا ينبغي على الملاك تركهم فريسة للفقر والعوز والحرمان من طيب العيش.

أما شعار «الإخاء» فهو دستور التعاون البشري الذي لم تفلح العصبيات والأيدلوجيّـات والفلسـفات في تحقيقـه، فما أجمـل أن تدعو الماسـونيّة لنبذ العنف وشيوع السلام والمحبة بين البشر».

□□□